Enlightenment collection's
EISSN: 2830-8719 / ISSN: 2716-7852
V:13, N°:3 – 2023, P.P : 1-15

سلسلة الأنوار
EISSN: 2830-8719 / ISSN: 2716-7852
المجلد 13، العدد 3- 2023، ص.ص: 1-15

مفهوم التكامل المعرفي بين حتمية الانفتاح وضرورة التأصيل

The concept of cognitive integration between the inevitability of openness and the necessity of rooting

حملاوي مهتور

جامعة 20أوت 1955سكيكدة/ mehtour.hamlaoui@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/05/14 ؛ تاريخ القبول : 2023/12/05 ؛ تاريخ النشر : 2023/12/20

الملخص

يعتبر مفهوم التكامل المعرفي من أهم المفاهيم وأخطرها على الصعيد المعرفي، والديني، والثقافي خاصة في عصرنا هذا الذي أضحت فيه العولمة فضاء عالميا؛ تهيمن عليه نظريات وأنساق معرفية غربية؛ تتفنن في صياغة المفاهيم، وتعبث بها وتسعى للتشويش على الحقل المعرفي الإسلامي وزعزعة مفاهيمه.

ويظهر ذلك بوجه خاص في صورة الفصل بين العلم والدين، وضمن هذا السياق تأتي مداخلتنا هذه، والتي نسعى من خلالها إلى ضبط مفهوم التكامل المعرفي، والتأصيل له في الحقل المعرفي الإسلامي، وهذا عبر رؤية تحليلية، تقودنا إلى التأكيد على ضرورة التأصيل لمفهوم التكامل المعرفي الذي يجمع بين العلم والدين، بعقلية واعية، ومتفتحة، وحذرة.

الكلمات المفتاحية: التكامل المعرفي، الدين، العلم، العولمة، التشويش، التأصيل.

Abstract

The concept of cognitive integration is one of the most important and most dangerous concepts on the cognitive, religious and cultural levels. Especially in our time when globalization has become a global space dominated by Western cognitive theories and systems; She is skilled in formulating concepts and tampering with them, and seeks to confuse the field of Islamic knowledge and shake its concepts.

This appears in particular in the form of separation between science and religion, and within this context comes our intervention, through which we seek to control the concept of cognitive integration and its rooting in the Islamic knowledge field, and this is through an analytical vision that leads us to emphasize the necessity of rooting the concept of cognitive integration that combines Science and religion, with a conscious, open-minded, and cautious mind.

Keywords: Cognitive integration, religion, Science, Globalization, jamming, rooting.

1.مقدمة:

يحظى مفهوم التكامل المعرفي باهتمام كبير من طرف الفلاسفة، والمفكرين، والعلماء من شتى التخصصات، والفروع العلمية والمعرفية، وهو من المفاهيم الخلافية التي يكتنفها بعض اللبس والغموض والضبابية، نظرا لاستخدامه بدلالات مختلفة، تصل إلى حد التناقض أحيانا وخاصة في عصرنا هذا الذي يشهد انفتاحا معرفيا وثقافيا لا حدود له، وهو الأمر الذي يستدعي ضرورة الحرص على عدم ترديد المصطلحات بعفوية، دون العمل على ضبط مفاهيمها وتحرير مضامينها، حيث تتمايز وتختلف هذه المضامين باختلاف الحضارات والمذاهب، والأنساق والتيارات الفكرية والفلسفية والدينية، ولعل من دواعي تحرّي المفاهيم ذلك الاحتكاك الحضاري بين الإسلام والغرب، وهو الاحتكاك الذي كانت له عواقبه وآثاره الوخيمة؛ على حياة المسلمين على جميع الأصعدة والمستويات.

ويكتسي الحديث عن التكامل المعرفي في عصرنا هذا؛ أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين فقد أضحت العولمة ظاهرة كونية وفضاء عالميا تهيمن عليه نظريات وأنساق معرفية غربية، تتفنن في صياغة المفاهيم وتعبث بها، قصد التشويش على الحقل المعرفي الإسلامي، وزعزعة مفاهيمه، عن طريق الفصل بين ميادين المعرفة، وممارسة شتى أنواع الهدم والتفكيك، وهو ما يظهر بوجه خاص في صورة الفصل بين العلم والدين، وهنا تظهر الحاجة إلى التأصيل لمفهوم التكامل المعرفي، الذي ينسجم مع مرجعية الأمة المسلمة وتاريخها، وضمن هذا السياق يأتي بحثنا هذا، والذي نسعى من خلاله إلى ضبط مفهوم التكامل المعرفي، ومحاولة التأصيل له في ثقافتنا الإسلامية، وهذا عبر إثارتنا لجملة من الأسئلة الهامة والمحورية، وعلى رأسها: مامفهوم التكامل المعرفي؟ وإذا كان الإسلام يدعو إلى العلم ويرفع من شأنه وكانت العولمة تمتلك التأثير الأكبر في حقول المعرفة المتنوعة، وتدعو إلى الفصل بين العلم والدين. وبات تأثيرها في فكرنا وعقيدتنا واضحا وجليا؛ فكيف يمكن التأصيل لتكامل معرفي يجمع بين العناصر المفككة، ويحرص على التمسك بقيم الثقافة العربية الإسلامية، ويقاوم ويواجه ويتصدى لمحاولات التغريب؟

وقد اعتمدنا في محاولة الإجابة عن الأسئلة السابقة الذكر على المنهج التحليلي، وبعض جوانب المنهج المقارن، والتمسنا خطة تستجيب لمسعانا المنهجي؛ وهي الخطة التي قسمنا بحثنا على إثرها إلى مقدمة وأربعة عناصر، وخاتمة، أما العنصر الأول فقد تناولنا فيه مفهوم التكامل المعرفي، وعالجنا في العنصر الثاني الدين والحث على العلم والانفتاح، وتطرقنا في العنصر الثالث

إلى العولمة، والفصل بين العلم والدين، أما العنصر الرابع والأخير؛ فقد خصصناه للحديث عن ضرورة التأصيل لمفهوم التكامل المعرفي في ثقافتنا الإسلامية، وهذا على النحو الآتي:

2. مفهوم التكامل المعرفي

حرّي بنا قبل أن نتعرف على مفهوم التكامل المعرفي؛ كمفهوم مركب أن نتعرف بداية على معنى مكونيه، وهما التكامل والمعرفة، فأما التكامل في اللغة فهو مشتق من الفعل الثلاثي المجرد" كَمَلَ" قال ابن منظور:" كمل، الكمال: التمام، وقيل التمام الذي تجزأ منه أجزاؤه... وأكملت الشيء: أي أجملْته وأتممته... وكمَّله: أتمَّه وجمَّله... وأكملت لكم: كفيتكم وأعطيتكم فوق ما تحتاجون" (ابن منظور، د.ت، صفحة 3930).

ومن هنا يمكننا القول أنّ التكامل في اللغة يعني الجمع والتأليف بين العناصر والأجزاء المفككة، والمشتتة، والتي يعتريها النقص، عندما تكون منفردة، وهذا يعني أن التكامل يقتضي التعاون والتكافل بين العناصر المفردة، وهذا يتطلب من دون شك الكثير من الجهد، والعمل الدؤوب والمستمر لتحقيق الغاية المنشودة، والتي هي التمام والكمال.

وهذا المعنى الذي تقدمه اللغة للتكامل على أنه الكمال، هو نفسه المعنى الاصطلاحي المتداول، فالكمال:" هو ما يكون عدمه نقصانا يستعمل في الذات والصفات والأفعال. وهو الأمر اللائق للشيء الحاصل له بالفعل سواء كان مسبوقا بالقوة أم لا... والكمال والتكميل إما أن يكونا في القوة النظرية أو في القوة العملية، وأفضل الكمالات النظرية معرفة الله تعالى، وأشرف الكمالات العملية طاعة الله تعالى" (الكفوي، 1998، صفحة 772)، فالتكامل يعني التكميل والتلاقي والاجتماع، والوحدة، والتآلف، والتنسيق، واتصال الأجزاء المفككة.

وأما عن المعرفة في اللغة فيقال: عَرَفَ الشيء: أدركه وعَلِمَهُ وعرَّفه الأمر: أعلمه إياه وعَرَّفَهُ بيته: أعلمه بمكانه (ابن منظور، د.ت، صفحة 2897)، فالمعرفة بهذه المعاني تدور في مجملها على الإدراك والعلم.

أمّا من الناحية الاصطلاحية، فالمعرفة تعني"إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تبارك وتعالى بالعالم دون العارف" (الجرجاني، د.ت، صفحة 185)، وبذلك تكون المعرفة هي نتاج ذلك التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك، وهي تتميّز عن باقي معطيات الشعور في كونها تقوم على التقابل والاتحاد الوثيق بين هذين الطرفين في آن واحد (مجمع اللغة العربية، 1998، صفحة 187،186). وهذا يعني أن المعرفة

بشرية تشير إلى التحصيل والاكتساب فهي بعدية، أما العلم فلا يكون إلا لله عز وجل، وهو قبلي أزلي، ولذلك يقول المؤمن بالله دائما عندما يبحث ويتوصل إلى نتيجة:"والله أعلم"، فالعلم المطلق لله، أما المعرفة والعلم الجزئي فهو للإنسان .

ويشير مصطلح التكامل المعرفي؛ كمفهوم مركب إلى موسوعية المعرفة والثقافة، والإلمام بالكثير من العلوم والمعارف لدى شخص ما، ولو كان إلمامه من باب الثقافة العامة، وليس المعرفة المتخصصة، وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض العلماء المسلمين قد اتصفوا بالتكامل المعرفي، الذي يعني الموسوعية، في اللغة والأدب، والفقه، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث والتاريخ، وربما الفلك، أو الطب، أو الرياضيات، فالإمام الطبري مثلا هو مفسر، ومؤرخ، وفقيه وعالم لغة وشعر، وابن خلدون سياسي، ومؤرخ، وقاضي قضاة المالكية بمصر، وعالم اجتماع وابن سينا فيلسوف وطبيب، وابن رشد فقيه وأصولي وطبيب وفيلسوف، وهكذا (ملكاوي، 2011، صفحة 25).

وقد تجلّت ظاهرة الإبداع في أكثر من علم عند مفكري وفلاسفة اليونان قديما، وربما كانت ظاهرة التخصص في علم واحد والتفرغ له ظاهرة حديثة في التاريخ الإنساني، بسبب التوسع الكبير الذي طرأ على المعرفة البشرية؛ حتى أصبح من غير الميسور على العالم الواحد أن يتخصص في أكثر من علم، بل إن العلم الواحد قد تجزأ إلى علوم فرعية لا يكاد العالم يتقن واحدا من هذه الأجزاء (ملكاوي، 2011، صفحة 25).

ويمكن للتكامل المعرفي أن يكون حاملا لمعنى تكامل جهود العلماء من عدة تخصصات لأجل التطوير العلمي والتكنولوجي المعاصر في مجالات متعددة، كالطب وغزو الفضاء (ملكاوي، 2011، صفحة 58)، وقد يفسّر التكامل المعرفي بمعنى التكامل في المناهج التعليمية بين العلوم الطبيعية والإنسانية "الحديثة"، والعلوم "الإسلامية" (أبو زيد، 2012، صفحة 113). ويتسع مفهوم التكامل ليشمل تكامل وتضافر جهود العلماء في الأجيال المختلفة؛ إذ يتأسس كل جيل على خبرة الجيل الذي سبقه، وكذلك الأمر في تكامل جهود الشعوب والأمم؛ حيث يكشف لنا التاريخ بأن حضارة أية أمّة، كانت في الغالب نتيجة التفاعل، والاستيعاب الثقافي والحضاري من الأمم الأخرى المعاصرة لها أو السابقة عليها (ملكاوي، 2011، صفحة 58).

ويمكننا أن نعثر على صور عديدة لقضايا التكامل المعرفي، ومنها التكامل بين الفلسفة والعلم، والتكامل بين الفلسفة والدين، والتكامل بين العلم والدين، ويهمنا في بحثنا هذا أن نناقش مسألة التكامل بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية وعلاقتها بالعولمة، وليس من شأننا أن نبحث في قضايا التكامل الأخرى.

3. الدين والحث على العلم والانفتاح

عندما نتحدث عن الدين فإننا نعني بذلك دين الإسلام، وهذا ما أشارت إليه العديد من آيات القرآن الكريم، ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية 85). وكذا في قوله عز وجل:﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ (سورة آل عمران، الآية 19).

والإسلام دين العقل، ودين العلم، وقد بدأ مسيرته بالدعوة إلى العلم، ويتجلى ذلك في أولى الآيات القرآنية التي تنكشف من خلالها أسمى معاني التشريف للعلم، وفيها يبدأ الله عز وجل خطابه آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل عليه السلام بقوله:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق، الآية 1- 5).

وهي دعوة صريحة لتعلم القراءة والكتابة، بل ولتوجيه نظر الإنسان إلى أدق العلوم، علم الحياة وخلق الإنسان، وليست من قبيل الصدفة أن نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴿12﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴿13﴾ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون، 12، 13)، ثم بعد مئات السنين يقرر العلم الحديث، بعد الاستعانة بالمجاهر وأجهزة التصوير والأشعة، أن الترتيب المنصوص عليه في هذه السورة هو ترتيب خلق الجنين، والأكثر من هذا أنه حتى لم يمكن الاستعاضة عن ألفاظ القرآن بغيرها. فهي الألفاظ التي تدل على المعنى بغير لبس أو غموض أو زيادة أو نقصان.

وليست مصادفة أن تتكرر في القرآن الكريم آيات الدعوة الصريحة إلى النظر في خلق السموات وما فيها، يقول عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يونس، الآية 101)، ويقول سبحانه وتعالى أيضا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية 185).

وكم هي كثيرة تلك الآيات الداعية إلى توجيه نظر المسلم إلى البحث والتأمل في كل ما يحيط بالإنسان وما يراه، بل تتعمق الدعوة إلى العلم؛ فيدعو الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى السير والهجرة في كافة أنحاء الأرض للدرس والبحث؛ فيقول عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ الآخرة إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شىء قَدِيرٌ﴾ (سورة

العنكبوت، الآية 20)، وقد تميّز الإسلام بأنه لم يفرض عقائده على الناس فرضا بل ناقش وعرض وأثار الفكر، وطالب بالبحث والتقصي حتى يقتنع المتشكك، ويقتنع الباحث بأن العقائد التي دعا إليها الإسلام قائمة على أساس العلم (نوفل، 1958، صفحة 78).

والأحاديث الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التي تدعو إلى طلب العلم كثيرة منها:"طلب العلم فريضة على كل مسلم" (صحيح الجامع، رقم الحديث3914)، ومنها "لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة" (سنن ابن ماجة، رقم الحديث219).

ولو أننا أمعنا النظر في أسباب إنكار العلماء للأخبار والقصص التي وردت في الكتب الدينية، كالطوفان أو الزلازل أو الفتن التي ذهبت بالأمم الخالية، لوجدنا بأنهم قد فعلوا ذلك لأنهم غير متدينين بالكتب التي وردت فيها تلك الأخبار والقصص، وذكرت ما ذكرت عن وعيد الأنبياء والرسل وعصيان القبائل أو الجبابرة المتألهين!، ولم تنقض على هذا الموقف من بعض العلماء فترة وجيزة حتى ثبت لهم هذا الخطأ في العلم فضلا عن الخطأ في حق الدين، فأصبحوا اليوم أقرب إلى الأناة والرصانة في تمحيص الحقائق، وراحوا يعيدون النظر في كل ما قرّروه سابقا على ضوء ما توصلت إليه الكشوف العلمية، ومنها كشوف الأحافير وكشوف الأرصاد الفلكية التي يسهل الرجوع إليها؛ فيما حدث أو لم يحدث من مقارنات الكواكب وعوارض الكسوف فقد أنكروا قصة الطوفان والسفينة، فوجد العلماء الحفريون هذه القصة مكتوبة على حجارة قديمة من آثار وادي النهرين، ووجدوها منقولة متواترة على الألسنة والآثار بين أقوام كثيرين من أمم المشرق والمغرب (العقاد، 1986، صفحة 189،190).

وإذا كان الإسلام يحث على العلم، ويدعو إلى طلبه، فلكي يكون للإنسان حضوره وفاعليته وتأثيره على الأرض، التي جعله الله عز وجل خليفة له عليها، فلم يخلق الله الإنسان ليكون كائنا انعزاليا منغلقا على نفسه، بل خلقه ليتعارف، وينفتح على الآخرين فيفيد ويستفيد، يقول تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(سورة الحجرات الآية 13).

وقد أقبل المسلمون على التواصل والتفتح على الأخر الغربي؛ المختلف معهم في العقيدة مؤمنين بضرورة الحوار والتفاهم مع غيرهم، والعمل على نشر قيم الحرية، والعدالة، والتسامح وهي القيم التي يدعو إليها الإسلام، ويعمل على تحقيقها، وقد استطاع المسلمون أن يساهموا في بناء الحضارة الإنسانية بوجه عام، والحضارة الغربية على وجه الخصوص مساهمة فعالة، ولكن الغرب تنكّر لهذه المساهمة، ولم يعترف بدور المسلمين في بناء الحضارة الغربية، والحق أن هناك بعض المنصفين للحضارة العربية الإسلامية، والمعترفين بفضلها على الحضارة الغربية ومن هؤلاء المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة"، في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب".

4. العولمة والفصل بين العلم والدين

العولمة ترجمة للكلمة الانجليزية"globalization" المشتقة من كلمة "globe"، أي الكوكب، والمقصود هنا كوكب الأرض، ويقصد بها لغويا تحويل العالم إلى شكل موحّد، ومحاولة دمجه في منظومة واحدة متكاملة، وهذا هو المعنى الذي حدده المفكرون باللغات الأوربية للعولمة في الإنجليزية والألمانية وعبّروا عن ذلك بالفرنسية بمصطلح "Mondialisation"، ووضعت كلمة "العولمة" في اللغة العربية مقابلا حديثا للدلالة على هذا المفهوم الجديد (التويجري، د.ت، صفحة 14).

وإذا كانت البدايات الأولى للعولمة تعود إلى القرنين 15و16 مع حركة النهضة الأوروبية فإن أزمتها قد تفاقمت في القرن العشرين، حيث عمل هذا الأخير كما يقول الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي إدغار موران "Edgar Morin":"على خلق نسيج كوكبي موحد، وعمل في نفس الوقت على تجزئته، إذ أصبحت أجزاؤه معزولة وشائكة، كما دخلت في صراع مع بعضها البعض (موران، 2002، صفحة 63).

وقد ظهر تأثير العولمة على حياة المسلمين واضحا جدا، فمع أواخر القرن السابع عشر بدأ العالم الإسلامي يدرك قيمة العلم الأوروبي الحديث، وأثره في تحقيق التفوق الأوربي على البلاد الإسلامية، فبدأت الأصوات تدعو إلى استيراد "العلم الحديث"، لأجل اللحاق بركب الحضارة الغربية (أبو زيد، 2012، صفحة 114،115).

وقد انجذب المسلمون إلى العلم الأوربي؛ لاقتناعهم بأن العلم من أهم ركائز المجتمعات والأمم، وأحد أبرز عوامل نهضتها، ولذلك لا يفلح مجتمع، ولا أمة لا تهتم بالعلم، أو تضعه في مؤخرة اهتماماتها، وإذا كان الانسجام والتكامل بين القيم والمبادئ الإسلامية، وبين النظم والمناهج

التربوية والتعليمية القائمة في ديار الإسلام قد بدا واضحا على مدار التاريخ، لأن الركود وبطء التغير سمحا بتحقيق هذا التكامل، فإن الأمر اليوم قد أصبح مختلفا تماما، فقد أصبحت حاجة المجتمعات إلى التطور جد ملحة، وقد أدى سعيها إلى التقدم إلى تفكيك النظم الثقافية والاجتماعية الموروثة (الشيباني، 1988، صفحة 30،31) وعلى إثر ذلك تمكّنت الأفكار العبثية والهدامة من التوغل في الأوساط الثقافية العربية الإسلامية، وقد ساعدها في ذلك دعاة التغريب الذين يدعون إلى مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي الذي أحرزته الحضارة الغربية، والذي ألقى بضلاله على شتى بقاع العالم، وهذا تحت غطاء العولمة التي لم تقتصر على عولمة الاقتصاد والسياسة، بل امتدت إلى التربية والثقافة وكل مناحي الحياة.

وقد تمكن الغزو الفكري الغربي في ظل الانفتاح الذي أحدثته ثورة المعلومات والاتصالات والتكنولوجيا الحديثة، وعبر مناهج التعليم من نشر كثير من الأفكار العبثية في المجتمعات العربية الإسلامية، وعمل على تشويه علوم المسلمين وثقافتهم وأخلاقهم، وأوهم الناس بأن التطور، والتمدن، والتحضر لن يكون إلا بالسير في طريق الحضارة الغربية، هذه الأخيرة التي شهدت ميلاد العديد من المذاهب كالوضعية، والبراغماتية، والمادية، والوجودية الملحدة، وهي كلها مذاهب تعمل على الترويج للأفكار الإلحادية التي تنصّب العلم دينا جديدا للإنسانية، وتعلن عن موت الإله!!.

فباسم العلم لم يعد الإنسان بحاجة إلى الإيمان بالله، بعد ظهور الاكتشافات الحديثة، فقد أصبح الإله في نظرهم فكرة غير ضرورية، وكل فكرة غير ضرورية لا أساس لها!!، فقد توصل العلم إلى أن الكون خاضع لقوانين معينة فقد كان الإنسان القديم يرى ببساط أن الإله هو الذي يقف وراء كل ما يحدث على الأرض وخارجها. ولكن الوسائل العلمية وأساليب البحث الحديثة قد كشفت لنا عن السبب الكامن وراء كل حادث يقع، ويمكننا معرفة ذلك السبب بإجراء التجربة فمثلا توصل نيوتن خلال مشاهداته إلى أن كل أجرام السماء من سيارات ونجوم مقيدة بقوانين ثابتة، وأنها تتحرك بموجب تلك القوانين، أما بحوث داروين فقد أبانت له أن الإنسان لم يوجد نتيجة عملية خلق مباشر، وإنما هو المظهر الأعلى لكائنات بدائية، وأنه جاء إلى الوجود نتيجة عمل القوانين المادية لحقب سحيقة في الارتقاء نحو الأفضل، وهكذا فإن العلم الغربي يريد أن يقنعنا بأن الكون الذي كنا نعتقد بأنه يخضع لأحكام الإله، إنما هو تابع لقوانين مادية وطبيعية (خان، 1987، صفحة 64، 63).

وقد كان للصدمة التي واجهها المسلمون بسبب التفوق الحضاري والعلمي الغربي بالغ الأثر في النفوس، حيث تأثرت بعض النخب المسلمة بهذا التفوق، إلى حد المطالبة بالفصل التام بين الدين والعلم، على نحو ما شهدته التجربة الغربية، وذلك في سبيل تحقيق التقدم العلمي والحضاري، ومن ثم فقد ارتبط ميدان البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في كثير من مخابر البحث في

الجامعات والمعاهد العربية والإسلامية بالأنساق الفلسفية للمنهج الوضعي، وهو الأمر الذي أدى إلى صياغة حياة عامة؛ مشبعة بالنظرة المادية المفرغة من القيم الموجهة لوجدان المسلم، أفرز كل ذلك تناقضات وثنائيات متصارعة فيما بينها، بين واقع المسلم والمعايير الدينية التي ألهمه بها الدين .

وإذا كان العلم هو السبيل الوحيد للنهضة والتقدم عند مفكري الغرب؛ فإن على من أراد السير في ركب الحضارة في نظرهم أن يتجرد من الدين، ويسلك سبيل العلم، لأنه حيادي، ولا هوية له؛ فالتطور العلمي الكبير الذي أحرزه الغرب في رأيهم؛ كان نتيجة القطيعة بين العلم والدين، وهذه هي الفكرة التي أراد الغرب تسويقها إلينا، في محاولة منه لزعزعة المنظومة المعرفية الإسلامية؛ القائمة على التكامل بين العلم والدين.

وقد نشأت فكرة القطيعة بين العلم والدين، في بيئة حضارية شهدت صراعا شهيرا ومريرا بين الدين، كما قدّمه اللاّهوت الكنسي الكاثوليكي في أوربا، وكما تصوّره وصوّره الرأي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية، وبين العلم الذي تأسست على قواعده النهضة الأوربية الحديثة (عمارة، 1997، صفحة 25).

وتظهر مزاعم القول بالقطيعة المفتعلة بين العلم والدين بوضوح على سبيل المثال؛ عند المستشرق الفرنسي أرنست رينان"Ernest Renan""1823-1892"، وهو واحد من أبرز المهتمين بدراسة الإسلام في ضوء النقد التاريخي استخدم رينان منهج النقد التاريخي في معالجة تاريخ الدين وأصوله، وهو المنهج الذي جعله يغيّر اتجاه حياته من خادم أمين للإكليروس الكاثوليكي إلى مشكّك في الدين ومزعزع قوي لأركانه (الخشت، 1998، صفحة 25،27)، فقد نقد الإسلام، ونعته بأبشع النعوت؛ فالإسلام من منظور رينان عدو للعلم والعقل، وقبر للإبداع والتجديد! (الخشت، 1998، صفحة 28،29)، وهذا ما يذهب إليه ويؤكده المؤرخ الفرنسي جابرييل هانوتو" Gabriel Hanotaux""1853- 1944"، الذي اتهم الإسلام بأنه صاحب موقف سلبي من العلم والعلماء، وبأنه يقف حجر عثرة في طريق التقدم (عبده، 1993، صفحة 234)، ولذلك فإن على المسلمين أن يتخلوا عن دينهم إذا ما أرادوا أن يدخلوا التاريخ ويسيروا في طريق التقدم الحضاري.

ولم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت في القرون الوسطى وبين أحضان النصرانية؛ حيث لا نعثر في تاريخ الأديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصراني؛ في قيامها في وجه العلم أزمانا طوالا بل قرونًا متعاقبة، فمع أن وظيفة الدين في الواقع اجتماعية إرشادية لا تعليمية. فقد شاءت عقول اللاهوتيين أن تكون وظيفته تعليمية؛ لهذا نشأ ما يسمونه

بالخصومة بين الدين والعلم، وما هي في الواقع إلا خصومة بين اللاهوت والعلم (ديكسون وايت، د.ت، صفحة 19).

5. حقيقة التزييف والتضليل وضرورة التأصيل لمفهوم التكامل المعرفي

يسعى منظروا العولمة باستمرار إلى تزييف الحقائق، وتضليل المسلمين لكي يوقعوا بهم في وهم القطيعة المفتعلة بين الإسلام والعلم، ويعتبر هذا من دون شك من أبرز دواعي التأصيل للتكامل المعرفي، حيث لا وجود لوجه شبه بين موقف الإسلام من العلم، وموقف اللاهوت الكنسي منه فمفهوم التكامل المعرفي، الذي يعمل الغرب على تسويقه إلى عالمنا العربي الإسلامي، هو مفهوم دخيل نبت أساسا في البيئة الفكرية والثقافية الغربية؛ التي عانت الكثير أمام هيمنة الكنيسة وتسلّطها، وعلى إثر ذلك افتعل الغرب الصراع بين الدين والعلم في الإسلام، وهو ما ظهر بوضوح في أفكار أرنست رينان" و"جابرييل هانوتو"، اللذان رد عليهما محمد عبده؛ مؤكدا بأن الدين والعلم صديقان حميمان، لا مجال للقول بتعارضهما أو تصادمهما، وأنّ لكل منهما وظيفته التي يؤديها دون أن تتعارض مع الأخرى، وهما حاجتان ضروريتان من حاجات البشر، ولا يمكن لإحداهما أن تقصي الأخرى، أو تلغيها أو تغني عنها (الأفغاني و عبده، 1993، صفحة 21)، وقد كشف محمد عبده من خلال خوضه في قضية العلاقة بين الدين والعلم؛ عن حرصه الشديد على تأكيد وحدة المعرفة الدينية والعلمية واتصالهما داخل المنظومة المعرفية الإسلامية.

وقد حرص محمد عبده على إظهار الإسلام في صورة الدين الكوني والشمولي والعصري الذي يستوعب قضايا الكون وحقائقه بأسرها، وبذلك يتم ربط الإنسان المسلم بالحضارة الحديثة ليواكب تطوراتها، ويستفيد من منجزاتها وعلومها مع محافظته على عقيدته، وهذا في محاولة منه لتجاوز المأزق الذي وقعت فيه الكنيسة مع التطور العلمي، وللتأكيد على عقلانية الإسلام وانسجامه مع مبادئ الحضارة الحديثة؛ هذه الأخيرة التي استلهمت مبادئها من عقلانية الإسلام وعلومه (المرزوقي، 1995، صفحة 309).

وفي سياق الخطاب الإسلامي المتعلق بوحدة العلوم ألحّ كثير من العلماء المسلمين في الماضي على ضرورة المحافظة على وحدة العلوم والمعارف، بحكم ارتباطها جميعا بمصدرها الواحد وهو الله عز وجل، سواء أكانت وحيا أوحى الله بها للإنسان بأساليب الوحي المعروفة، أم يسّر للإنسان اكتشافها وتطويرها واكتسابها بأساليب البحث والسعي والنظر، ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى جهود الغزالي وابن رشد وابن تيمية (ملكاوي، 2011، صفحة 32)، وفي سياق ذلك يقول الغزالي:"على المتعلم ألا يدع فنا من فنون العلم، ونوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطّلع به

على غايته ومقصده وطريقه. ثم إن ساعده العمر وواتته الأسباب طلب التبحر فيه، فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب جهله به" (الغزالي، 2000، صفحة 209).

وقد أدرك عدد كبير من الباحثين والمفكرين في العصر الحديث؛ أهمية التزاوج بين العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى، كالعلوم الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتربوية والسياسية، وغيرها وبرزت دعوات الأسلمة لتحقيق أمور ثلاثة; وهي:1- بيان سبق الإسلام إلى كثير من القضايا التي توصلت إليها تلك العلوم.2- تزييف بعض القضايا والرؤى الفاسدة التي اشتملت عليها تلك العلوم. 3- صياغة تلك العلوم برؤية شرعية مستنبطة من الوحي ومن تراث العلماء الإسلاميين. وتبرز أهمية هذا التزاوج في ضرورة تفعيل العلوم الإسلامية في العلوم الأخرى، وجعلها حاضرة في البناء الحضاري في شتى المجالات، ومن جهة أخرى؛ فإن عزل العلوم الأخرى عن الإفادة من المنهج الشرعي في تناول هذه القضايا يجعلها عرضة للأهواء والانحرافات، وسببا في شقاء الإنسان وجشعه وأنانيته، وقد ظهرت ثمار هذا التزاوج في كتابات كثيرة في شتى العلوم استطاعت أن توظف النصوص الشرعية والعلوم الإسلامية في التأسيس لنظريات، وفي نقد نظريات ومسلّمات في علوم مختلفة (الغصن، 2016، صفحة 142).

لقد آمن المسلمون بضرورة أسلمه المناهج والعلوم والمعرفة، وتقديم البدائل الأصيلة لتحل محل المفاهيم الوافدة في مختلف المجالات، فالمعرفة تدبير وإدراك للأشياء، لايمكن أن تتحقق دونما تكامل مصادرها وأدواتها، ولا شك أن الوصول إلى المعرفة الكلية والحقيقية ومحاولة مقاربتها، لا يكون دون تكامل مصادر المعرفة، وهما الوحي والوجود وأدواتها العقل والحس، ومن هنا يمكننا القول أن المفهوم الأصيل للتكامل المعرفي هو: "ذاك الإدراك التام الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني وما ينتظم به من سنن وما ينشأ عنه من علوم ومعارف؛ تظهر به الآثار العملية والجمالية للمعرفة في ربطها أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي" (ملكاوي، 2011، صفحة 35).

ويظهر مفهوم التكامل المعرفي بوجهه الأصيل بوضوح على سبيل المثال عند إسماعيل الفاروقي، حيث يرى هذا الأخير بأن التوحيد يدعو الإنسان إلى الربط بين الإيمان بالله الخالق من جهة، وممارسة العلم في ميادينه المختلفة من جهة أخرى؛ ذلك أن الإنسان عندما يدرك فعل الله في كل الأحداث والأشياء فإنه يتتبع فعل الخلق الإلهي، فعندما يشاهد فعل الله في الطبيعة فإنه يمارس العلوم الطبيعية؛ فالخلق الإلهي في الطبيعة ليس إلا السنن والقوانين التي أودعها الله في هذه

الطبيعة. وعندما يشاهد الإنسان فعل الخلق الإلهي في نفسه أو مجتمعه، فإنه يمارس العلوم الإنسانية والاجتماعية. وإذا كان الكون بأجمعه يتكشف نتيجة سعي الإنسان وبحثه عن فعل تلك القوانين والسنن بوصفها أوامر الله وإرادته، فإن الكون في نظر المسلم هو مسرح حي خلقه الله سبحانه بأمره وفعله (ملكاوي، 2011، صفحة 40).

فالفكر الإسلامي يؤمن بتآلف وتكامل وحداته وعناصره المختلفة، والتقائها على الهدف الأساسي للفكر، وهو بناء الفرد والجماعة ودفعها إلى التقدم والبناء والنمو، وأداء الرسالة الإنسانية الأساسية التي يقوم الفكر الإنساني من أجل بنائها وحمايتها ودفعها إلى الأمام، وهذا لا يتم إلا بوجود جو من التكامل بين هذه الفروع المختلفة من الفكر تستهدف غاية واحدة، وتقوم على أساس فهم واحد مستمد من القرآن، فالحقل المعرفي الذي يمارس الفكر الإسلامي نشاطه فيه يقوم أساسا على التكامل والكلية والشمولية، فهو يجمع بين الدين والدنيا، والعقل والقلب والعلم والدين، والروح والمادة .

وينبغي لهذا المنهج الشمولي أن يقود حركة الإنسان المسلم في مسيرته المعرفية؛ لأنه منهج يراعي أبعاد الإنسان المادية والروحية، وهي الأبعاد التي تحققت في الحضارة الإسلامية فكانت حضارة إنسانية حقا، حضارة تحقق فيها وبامتياز ذلك التوازن داخل الكيان الإنساني، وفي واقع الحياة، وما كان لهذا التوازن أن يتم لولا الدين، وقد "أكدت وقائع التاريخ، وحوادث الزمان أن الناس لا يقادون إلا بالدين، ولا يضحون إلا في سبيل العقيدة، إذ لا بد للإنسان من عقيدة تحفزه لفعل الخير، والإقلاع عن الشر، وتحمل المصاعب في سبيل ذلك، وليس كالعقيدة الإسلامية في التأثير على الفرد والأمة تأثيرا إيجابيا، يبعد عن الشر ويدفع إلى الخير، لما لها من سلطان على النفس لا يعدله في قوته سلطان" (علي، 1999، صفحة ص28).

ولذلك فقد سعى الغرب لعزل الإسلام عن شؤون الحياة بحجة أن الإسلام دين رجعي ودين تخلف، وعبّر عن ذلك على لسان فلاسفته، ومفكريه، ومؤرخيه، ومستشرقيه، الذين سعوا وعبر آليات الإقصاء العرقي والعقلي، إلى إقصاء الإسلام حضاريا، وفي ظل الوضع الراهن للمجتمع الإسلامي، وما يشهده من استقبال للتيارات الغربية تظهر الحاجة ماسة اليوم، وأكثر من أي وقت مضى لضبط مفاهيم المصطلحات المتداولة على الصعيد المحلي والعالمي، لأن المعركة اليوم هي معركة مفاهيم، فالغرب يسعى باستمرار إلى زعزعة المفاهيم والتشويش على المنظومة الفكرية الإسلامية، لأنه يدرك جيدا بأن الفكر هو الموجّه لحركة سلوك الإنسان وتصرفاته، ولذلك فإن عملية التأثير والتغيير في توجهات الإنسان، وسلوكاته تكون عبر بوابة الفكر، ولذلك رأينا كيف يجتهد الغرب لتنفيذ خطط

التفكيك والتجزئة والتشويش على الفكر الإسلامي؛ لكي يتشتت ويضيع فيسهل احتواؤه وتوجيهه في أي اتجاه.

ومن هنا جاءت دعوات التحذير من خطر الفكر الغربي، وكذا محاولات الإصلاح للفكر الإسلامي، فذهب البعض من المهتمين بمفهوم التكامل المعرفي إلى القول بأنه يعد:" مشروعا إصلاحيا يستهدف تقويم مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر وتفعيل مؤسساته العلمية على وجه الخصوص، في خدمة قضايا الأمة الإسلامية، من خلال وصل المعارف الإنسانية والتطبيقية وتسديدها بالوحي المعصوم وتوليد معارف إسلامية قادرة على الاستجابة لحاجات الأمة على مستوى الأفراد والمؤسسات والجماعات والشعوب" (محمد أحمد، 2007، صفحة 335).

6. خاتمة:

وننتهي في الأخير إلى التأكيد على ضرورة العمل والسعي الدؤوب لتصحيح المفاهيم، لكي نتحصن ضد الغزو الفكري والثقافي الغربي، الذي تعصف رياحه القوية بكل من يواجهه وهو مغمض العينين، ذلك أن الدور الذي تلعبه الأفكار والمفاهيم هو دور خطير جدا؛ فهي تعمل على تفكيك عناصر المنظومة المعرفية الإسلامية، وتدمير القيم والعقيدة، ومفهوم التكامل المعرفي هو من أخطر المفاهيم ولذلك ينبغي الحرص على التشغيل الحذر له، والعمل على رده إلى إطاره ومرجعيته الإسلامية الأصيلة، والحرص على تحقيقه بعقلية متفتحة وواعية، ومستنيرة تحرص على مواكبة التطور المعرفي والعلمي، وتقبل بالجديد، وتبتعد عن التعصب والانغلاق، وتُؤمن بضرورة الاتصال والتواصل بين حضارة الشرق والغرب، وتحذّر من المحاكاة السطحية للغرب، والتقليد الأعمى له.

وإذا كانت الحضارة والثقافة الإسلامية قد قامت على أساس الارتباط التوحيدي العميق بين الإسلام والعلم؛ فإن على العقل المسلم اليوم أن يتحصن ضد الاختراق المعرفي والثقافي الغربي ويحرص على عدم الانسياق وراء الإيديولوجيا الغربية؛ في تمييزها الحاسم والخطير بين العلم والدين، فعن طريق الإيمان بوحدة المعرفة الدينية والعلمية؛ وعبر رؤية معرفية توحيدية إسلامية كونية شمولية يمكن للعقل المسلم أن يطور فهماً واضحاً وسليماً للكون، والحياة، والإنسان ويؤسس لمعرفة تكاملية، إسلامية في منطلقها ومنهجها وتوجهها وغاياتها، لكي تكون فاعلة ومؤثرة حضاريا، وقادرة على الصمود والتحدي ومواجهة التيارات الغربية العبثية والهدامة.

7. قائمة المصادر والمراجع:

✓ القرآن الكريم

أبو بكر محمد أحمد محمد أحمد. (2007). *التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية دراسة في تجربة كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ط1.* هرندن، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

أبو حامد الغزالي. (2000). *ميزان العمل.* بيروت: دار الكتب العلمية.

أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. (1998). *الكليات،ط2.* بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

إدغار موران. (2002). *تربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوي.* الدار البيضاء،المغرب – باريس، فرنسا: دار توبقال، منشورات اليونسكو.

اسماعيل علي. (1999). *الغزو الفكري في وسائل ثقافة الطفل المسلم(مظاهره وآثاره)،ط1.* مصر: دار الكلمة.

أندرو ديكسون وايت. (د.ت). *بين الدين والعلم.* القاهرة: هنداوي للتعليم والثقافة.

جمال الدين الأفغاني، و محمد عبده. (1993). *العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، تحقيق صلاح الدين البستاني، ط3.* القاهرة: دار العرب.

جمال المرزوقي. (1995). *الإتجاه العقلي عند الإمام محمد عبده.* مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

سليمان بن صالح الغصن. (2016). العلوم الإسلامية وتحديات العولمة، . *مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، العدد الأول، جانفي* .

سمير أبو زيد. (2012). *تاريخ فلسفة العلم من منظور إسلامي بوصفه أساسا لتحقيق التكامل المعرفي ضمن كتاب التكامل المعرفي أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية، تحرير رائد جميل عكاشة، ط1.* هيرندن–فرجينيا– الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

عباس محمود العقاد. (1986). *الإسلام دعوة عالمية، ط3.* بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

عبد الرزاق نوفل. (1958). *الإسلام والعلم الحديث، ط1.* مصر: دار المعارف.

عبد العزيز بن عثمان التويجري. (د.ت). *العالم الإسلامي في عصر العولمة.* القاهرة: دار الشروق.

علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني الجرجاني. (د.ت). *معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي.* القاهرة: دار الفضيلة.

عمر التومي الشيباني. (1988). *فلسفة التربية الإسلامية*. القاهرة: الدار العربية للكتاب.

فتحي حسن ملكاوي. (2011). *منهجية التكامل المعرفي،ط1*. هرندن–فرجينيا– الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

مجمع اللغة العربية. (1998). *المعجم الفلسفي*. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

محمد بن مكرم ابن منظور. (د.ت). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.

محمد عبده. (1993). *الإسلام بين العلم والمدنية*. القاهرة: دار الهدى.

محمد عثمان الخشت. (1998). *الإسلام والعلم بين الأفغاني وربنان*. القاهرة: دار قباء.

محمد عمارة. (1997). *نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، ط2*. القاهرة: دار الرشاد.

وحيد الدين خان. (1987). *الدين في مواجهة العلم، ط4*. بيروت: دار النفائس.